وليم إفرايم طانيوس

كنت مديرا فى شركة كبيرة، وأتقاضى مرتبا كبيرا جدا، وأعيش فى فيلا أنيقة، فجأة جاءنى قرار من الحزب، اترك كل شىء واذهب محترفا إلى المحلة ومرتبك سيكون ثلاثة جنيهات فى الشهر، وقبلت على الفور ودون تردد.
وليم إفرايم «فى حواره معى»

إنه ذلك الجيل الذى بنى مجد اليسار المصرى، القدرة على التضحية، والقدرة على الالتزام حتى ولو كان قرار القيادة غير منطقى أو حتى كان قرارا مجنونا.

الأسرة متوسطة اشتغل أغلب أفرادها فى محالج القطن وأحيانا فى الإتجار المحدود بالقطن، أما أبوه فقد تجول حائرا فى أكثر من مدينة بحثا عن رزق أكثر وفرة، فتنقل بين ملوى ونجع حمادى والمنيا وبنى مزار والقاهرة، حقق بعضا لا بأس به من المال لكن الأسرة كبيرة (٩ بنات وولدان) والعبء ثقيل والتنقل المتعدد أربك تعليم الأولاد، وفطن وليم وهو صغير إلى أن مستقبله رهن بأن يتعلم، وبالفعل حصل على شهادة الثانوية العامة الإنجليزية «المتريكليشن» بالمراسلة ثم دبلوم اقتصاد من جامعة لندن بالمراسلة أيضا، وبعدها أصبح جاهزا للصعود إلى مستوى اجتماعى مرموق. هو يتذكر أيامه وهو صغير فى عام ١٩٤٠ فى نجع حمادى كانوا يسكنون فى فيلا على النيل أو كما كان يسمونه الساحل، وفى المرسى كانت المراكب كثيرة والتجار أكثر والأنظار كلها مشدودة للحرب وتطوراتها يحضرون الجرنال ولا أحد يعرف القراءة ووجدوا فى وليم ضالتهم يجلسون جميعا فى صمت وهو يقرأ وبعدها تنفجر نقاشاتهم وخلافاتهم وهو يستمع ويستمتع، وعاش الفتى فى غمار السياسة، وكره الإنجليز كما كان يكرههم كل الذين يقرأ لهم الجرنال، ذات يوم قتل السكان جندياً إنجليزياً وحملوه على عربة كارو وهم يهتفون «رطل الإنجليزى بقرش»، وبالمصادفة وقع فى يده كتاب لسلامة موسى عن «الاشتراكية» وتعلق بالفكرة ويقول «كنت أحلم وأنا فى هذه السن أن أفتح محل بقالة وأبيع

للفقراء بدون ربح، وأن أتزوج طبيبة تعالج الأطفال مجانا، وفى القاهرة توظف وليم الذى أصبح يجيد الإنجليزية فى شركة كبيرة لبناء محطات الكهرباء، ذات يوم أعطاه قريبه لطيف فرج وكان طالبا بالجامعة كتابا عن الاشتراكية ثم كتابا عن الماركسية، ثم سلمه لطالب جامعى يتهب حماسا هو ضياء الدين بدر وبدأ يدرس الماركسية على يديه وأسعفته معرفته بالإنجليزية فى قراءة كتب عديدة، لكنهم تركوه هكذا لم يضموه إلى أى مجموعة أو خلية ولم يعرفه إلا عدد قليل جدا، فقد جعلوا من بيته مخزنا للمطبوعات الحزبية، وبقى هكذا حتى ١٩٥٠، وفى هذه الأثناء رقى لكفاءته ليصبح مديرا عاما وعاش حياة مرفهة، فيلا ومرتب وفير، وفى هذه الأثناء ضمه قريبه رءوف فرج «طالب طب – انتقل إلى سيدنى فى الستينيات ليصبح أحد أشهر أطباء استراليا» إلى منظمة الحزب الشيوعى المصرى «الراية» وفى هذه المنظمة ظل يعمل أيضا فى أشد الأجهزة خطورة توفير آلات الطباعة وتخزين المطبوعات وترتيب شبكة الاتصال، نجح وليم نجاحا باهرا، أقام شبكة اتصال دقيقة ومتقنة، واحد من الرفاق العاملين معه هو المهندس نعيم محروس وضع تصميما لمطبعة بسيطة جدا وشديدة الكفاءة، وذهبا معا إلى صاحب ورشة ميكانيكية فى شبرا هو عبدالعزيز خاطر حاولا خداعه طلبا منه تصنيع عدة قطع منفصلة صنعها وهو يبتسم وبعد أن أنجز المهمة سألهم «إنتوا بتعملوا مطبعة ليه؟» صارحوه أنهم شيوعيون وضحك قائلا: «متقولوا كده من الأول» وانضم عبدالعزيز خاطر وتخصص فى بتكار مطابع بسيطة وجيدة الطبع، بل أصبح يمارس أيضا طباعة المطبوعات الحزبية، وذهب وليم إلى طنطا حيث هيأ مخبئا ماكرا للمطبعة، بنى حائطا يسد إحدى الغرف ثم ركب على الحائط المصنوع حوضا وحنفية وتحت الحوض باب سرى، وفى الغرفة السرية كانت المطبعة التى لم ينس عبدالعزيز خاطر أن يزودها بمواد عازلة لتقليل صوت الماكينة، ومع هذا النجاح المذهل وبرغمه أو بسببه سيان أتاه قرار حزبى، اترك عملك وبيتك واذهب محترفا إلى المحلة، ترك الوظيفة والفيلا، وأخذ زوجته وطفله سعد إلى غرفة محشورة فى حارة ضيقة فى بيت مهدم، المرتب عشرة قروش فى اليوم قرشان للسجاير وقرش ليستطيع أن يجلس على القهوة كى يبدأ علاقات اجتماعية تمكنه من تجنيد رفاق جدد، وسبعة قروش للسكن والطعام وكل حاجياته هو والزوجة وسعد، ومع هذا التقانى فى الكفاح صعد وليم إلى اللجنة المركزية، وأصبح أيضا مسئولا عن كل أجهزة الطباعة. وفى منشية البكرى كانت هناك شقة بها مطبعة صغيرة، كان هو هناك وكان عبدالناصر يخطب فى مؤتمر لعمال السكة الحديد وأتى صوته عبر الراديو

مهاجما «الشيوعيين العملاء» كتب بسرعة بيانا مختصرا يرد عليه، وطبعه على الفور ثم أسرع به إلى أحد الزملاء العاملين فى السكة الحديد هو غنيم مصطفى، سلمه البيان وأمره أن يوزعه فى مكان الاجتماع وفيما الخطب تتوالى وعبدالناصر على المنصة إذا بمنشور يلقى فوق رءوسهم يرد على ما قاله عبدالناصر فى ذات الاجتماع، رفاقه اعتبروه بطلا، أما هو فقد واصل حياة شديدة العذاب، هو احتمل برضاء، ولكن ما ذنب زوجته وطفله، ذات يوم أسرع إلى ملوى فى مهمة حزبية عاجلة ترك لزوجته كل ما معه من قروش غاب عدة أيام القروش نفذت والجوع كاد أن يفتك بالطفل لم يكن لديهم سوى حلة بها بقايا أرز مطبوخ من عدة أيام الزوجة أكلت هى وطفله وأصيبا بتسمم وعاد ليجدهما على وشك الموت، وفى نوفمبر ١٩٥٤ قبض عليه بعد أن كان قد استعاد وجود الحزب فى عديد من المناطق وإلى سجن القناطر، الزوجة جاءت لزيارته ومعها سعد، تعلق سعد فى عنقه ورفض أن يترك أباه، ضابط غليظ القلب انتزع سعد بوحشية وأصيب سعد من يومها بالصرع (سعد أصبح دكتور مهندس لكن هذه اللحظة المتوحشة لم تفارقه حتى الآن)، قبض مع وليم على اثنين من أقربائه د. رفقى والمهندس نعيم ومع كل منهما أوراق حزبية، هو ضبط ومعه أدوات طباعة ومطبوعات وأرشيف أى أنه مسجون، مسجون. فوقف أمام القاضى معترفا أنه شيوعى وأن المضبوطات تخصه، وحتى مضبوطات رفقى ونعيم قال إنه وضعها فى بيتهما دون أن يعلما بذلك وأفرج عنهما أما هو فقد حكم عليه بسبع سنوات أشغال شاقة، لكن المأساة لم تكتمل.. فقد شكلت لجنة للتحقيق فى أسباب الاختراق الأمنى للحزب، كانت هناك أخطاء أمنية كثيرة، لكن الاعتراف بها يهز مكانة القيادة ولم يجدوا سوى اتهامه بأنه عميل للأمن، كاد أن يموت حزنا، لكنه تحمل وظل مرفوع الرأس واثقا من نفسه، وفى عام ١٩٦١ انتهت مدة العقوبة ومن المفترض أن يفرج عنه لكن رجل البوليس السياسى حسن المصيلحى استقبله وقال له لماذا تبقى معهم وهم يتهمونك بأنك عميل؟ إتركهم واستنكر مبدأهم وأنا أفرج عنك، ورفض، فعاد إلى الواحات معتقلا، لكن زوجته لم تعد تحتمل وقررت الانفصال عنه فكانت لطمة أخرى، ومع ذلك ظل مبتسما، هادئا، مرفوع الرأس واثقا من نفسه حتى أفرج عنه عام ١٩٦٤ مع الجميع، وبعدها عمل مديرا للمكتب التجارى الرومانى فى شارع طلعت حرب ليمر عديدا من المرات كل أسبوع على مقر التجمع، يسأل ويشارك ويتبرع بالكثير.. حتى رحل.